الاستراتيجية الإسلامية واقتصاديات الحرب

• تربط العسكرية الإسلامية بين الاستراتيجية والاقتصاد برباط وثيق يتمثل فى انتمائهما إلى أصل واحد هو «القوة» بمفهومها الشامل . فإن مفهوم القوة فى الآية الكريمة : ﴿وأعِدُّوا لَهم ما استَطعْتُم من قوةٍ ومن رِّباطِ الخيل﴾ يشمل جميع مصادر القوة المادية والمعنوية .

ثم ورد بعد ذلك فى نفس الآية ما يعبر عن الاقتصاد من مال وإنفاق : ﴿تُرهِبُون به عَدوَّ اللَّهِ وعدُوَّكُمْ وآخَرينَ من دُونِهِمْ لا تعلَمونهُمُ اللَّهُ يَعلَمُهُمْ وما تُنفقُوا من شىء فى سبيلِ الله يُوَفَّ إليكمْ وأنتمُ لا تُظْلمونَ﴾

[الأنفال : ٦٠]

• هذا الارتباط الوثيق بين الاستراتيجية العسكرية والاقتصاد يعنى أمرين فى غاية الأهمية :

١ – أن التنمية الاقتصادية فى الأمة الإسلامية ، وإن كانت تخضع لقوانين خاصة بها ، إلا أن عليها أن تراعى فى أهدافها وخططها الاعتبارات العسكرية .

٢ – فى زمن الحرب ، فإن اقتصاد الأمة الإسلامية يتقرر كلية وفقًا للمتطلبات العسكرية (وهو ما يعرف باقتصاد الحرب) ومن أجل ذلك

يجب أن يكون البنيان الاقتصادى قادرًا على التكيف مع متطلبات الحرب واحتياجاتها ، وأن تتولى القيادة السياسية العسكرية العليا تنسيق وتوجيه جميع موارد وإمكانات الدولة السياسية والاقتصادية والعسكرية نحو تحقيق الغاية السياسية من الحرب .

• ولهذا الارتباط أيضًا شأن خطير فى تقدير الإسلام يتمثل فى تحذير الله سبحانه لنا من التهاون فى امتثال أمره بأن ننفق أموالنا فى سبيل الله وهو تعريضنا لأن نلقى بأنفسنا إلى التهلكة .. يقول الله تعالى : ﴿وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

[البقرة : ١٩٥]

فبعد أن أمرنا بالإنفاق ، نهانا بقوله ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ لنفهم الحكمة فى الأمر بالإنفاق والمعنى أنكم إذا لم تبذلوا فى سبيل الله وفى سبيل تأييد الحق وحماية أنفسكم وبلادكم كل ما تستطيعون من المال ومن استعداد للدفاع ، فقد أهلكتم أنفسكم .

إن إنفاق الأموال والاستعداد للقتال قبل وقوعه هو الذى يقى البلاد من الهلاك ، والضن با لمال والحرص عليه وإمساكه عن البذل فى سبيل الخير والبر والدفاع عن الوطن والحق والنفس ، يوقع الأمة فى الهلاك ، ويعرضها لأن ينتهك العدو حرماتها ، ويغزو بلادها ويستعبد أبناءها ، ويعتدى على مقدساتها ويسلبها حقها فى إقامة شعائر دينها وفى حريتها وفى عقيدتها ..

• ولقد فرض الله الجهاد بالمال ، وقدمه على الجهاد بالنفس فى أكثر الآيات القرآنية التى تحث على الجهاد كما فى قوله تعالى : ﴿وجَاهِدوُا بأمْوالكُمْ وأنفُسكُمْ فى سَبيلِ الله﴾

[التوبة : ٤١]

﴿إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وهَاجَرُوا وَجَاهدوا بأمْوَالِهمْ وأنفُسِهمْ فى سَبيلِ الله والَّذينَ آوَوا ونَصَرُوا أُولئكَ بعضُهُمْ أولياءُ بعض﴾

[الأنفال : ٧٢]

﴿الذينَ آمَنوا وهاجرُوا وجَاهَدُوا فى سَبيلِ الله بأمْوالِهِمْ وأنفُسِهِمْ أعظمُ درجةً عند الله وأولئكَ هُمُ الفائزونَ . يُبشِّرهم ربهمْ برحمةٍ منهُ ورِضْوانٍ وجناتٍ لَّهمْ فيها نعيمٌ مقيمٌ . خالدينَ فيها أبدًا إنَّ اللَّهَ عِندهُ أجْرٌ عظيمٌ﴾

[التوبة : ٢٠ - ٢٢]

﴿يَاأيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا هل أدُلكمْ على تجارةٍ تُنجيكُم مِّنْ عذاب أليم . تُؤمنون باللَّهِ ورسولهِ وتُجَاهدونَ فى سبيلِ اللَّهِ بأموالِكمْ وأنفُسِكُمْ ذَلكُمْ خير لَّكُمْ إن كنتُمْ تعلمُونَ﴾

[الصف : ١٠ - ١١]

وعن أبى داود بإسناد صحيح . عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» أخرجه النسائى .

• والحكمة فى ذكر الأموال قبل الأنفس هو أن الجهاد بالمال قد يكون أشد ضرورة وحاجة من الجهاد بالنفس ، لأن الجهاد بالمال أمر لابد منه فى تزويد الجيش بمطالبه ، وهو كذلك أمر لا حدود له إذا ما قورن بالجهاد بالنفس ، إذ أنه يمكن الاكتفاء من الرجال بالعدد الكفيل بالتغلب على العدو ، كأن يكون جيش المسلمين ضعف جيش العدو أو ثلاثة أضعافه ، أما المال فلا حدود لطلبه لأن الحرب تحتاج إلى مال غير محدود ، وبذلك يمكن للإنسان أن يشارك فى الجهاد بماله إذا لم يجاهد بنفسه»[1] .

ووجه آخر من الحكمة فى ذكر الأموال قبل الأنفس ، هو أن غير القادرين على الجهاد بالنفس لعذر من الأعذار كالضعف أو المرض أو بسبب بعدهم عن مكان المواجهة مع العدو ، عليهم أن يساهموا فى المعركة بالمال (أو ما يقوم مقامه من الناحية الاقتصادية كالطعام والوقود وغيرهما) بقدر استطاعتهم وبذلك يستفيدون من هذا الإسهام المستطاع مثوبة عند الله تعالى ، ويكونون راضين عن أنفسهم .

• كذلك فإن الجهاد بالمال يحقق الرهبة فى قلب العدو من قوة المسلمين ، ذلك لأن المال وهو يعبر عن القوة الاقتصادية ، هو عصب الحرب كما يقول العسكريون ، فإذا رأى العدو أنه سوف يواجه من قبل المسلمين بقوة عسكرية تساندها قوة اقتصادية لا ينضب معينها ، فسوف لا يستهين بالمسلمين ولا يعلق أمله على التغلب عليهم .

---

(١) لاشك فى أن المجاهد بنفسه وماله معًا فى طليعة المقربين إلى الله أكثر من المجاهد بأحدهما فقط «ولكل درجات مما عملوا» .

وهكذا يشكل الجهاد بالمال ركنًا قويًا من أركان استراتيجية الردع الإسلامية ومن أجل هذا أجاز الإسلام لولى الأمر أن يأخذ من أموال الناس فى زمن الحرب ما تدعو الحاجة إليه .

* والجهاد بالمال كالجهاد بالنفس يكون وقت الحاجة والضيق أفضل منه فى الأوقات الأخرى ، كما بين الله تعالى ذلك فيمن أنفق وقاتل قبل فتح مكة ، حين كان الإسلام فى أول أمره فى حاجة إلى المساعدة والمعونة ، وكيف أن الله تعالى أعلى مرتبتهم ، ورفع درجتهم عن الذين أنفقوا بعد الفتح وقاتلوا ، مع أن الله وعد الجميع الحسنى على أصل البذل والجهاد ، لما فيه من النفع والفائدة وما لفاعلها من الأجر والثواب ، قال عز وجل :

﴿وَمَالَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فى سبيل الله ولله ميراثُ السَّموات والأرض لا يَسْتَوى مِنكُم مَنْ أنفقَ من قبل الفَتْح وقَاتَلَ ، أولئكَ أعظمُ درجةً مِّنَ الَّذينَ أنفقُوا من بعدُ وقاتلُوا ، وكلاًّ وعد اللَّهُ الحسنَى﴾

[الحديد : ١٠]

* والأحاديث الواردة فى فضل الجهاد بالمال وعظيم أجره وثوابه عديدة نذكر منها :

١ - عن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من جهز غازيا فقد غزا ومن خلف غازيا فى سبيل الله فقد غزا» رواه الترمذى والبخارى ومسلم .

٢ – وعن خريم بن فاتك قال : قال رسول الله ﷺ : «من أنفق نفقة فى سبيل الله تعالى كتبت له بسبعمائة ضعف» رواه الترمذى وحسنه والنسائى .

٣ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من احتبس فرسا فى سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده ، فإن شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة» رواه البخارى (ومثل الفرس كل عدة من عدد الحرب التى تختلف باختلاف العصور والأزمان) .

٤ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «من أنفق زوجين من شىء من الأشياء فى سبيل الله ، نودى من أبواب الجنة كلها : يا عبد الله هَلُم» (أى أن كل أبواب الجنة تنادى عليه ليدخل وهذا زيادة فى التكريم) رواه البخارى .

• ولقد أنفق المسلمون الأولون أموالهم فى سبيل الله : مات الرسول ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعًا من شعير ، وأنفق أبو بكر جميع ماله فى سبيل الله ، وكان يوم أسلم من أغنياء قريش المعدودين ، وأنفق عمر بن الخطاب نصف ماله ، كما جهز عثمان بن عفان جيش العسرة فى غزوة تبوك بالإضافة إلى الأموال الطائلة التى أنفقها على غيرها من الغزوات .

أما آل محمد ﷺ ، فقد روى الحسن عنهم قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : «والله ما أمسى فى آل محمد صاع من طعام وإنها

لتسعة أبيات» . «والله ما قالها استقلالا ، ولكن أراد أن تتأسى به أمته» .

* هذا ، وفى إطار الارتباط الوثيق الذى قرره الإسلام بين الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية ، وانطلاقًا من تكليف الأمة الإسلامية بالجهاد بالمال مع الجهاد بالنفس ، فإنه يمكن استخلاص الأركان التى يقوم عليها اقتصاد الحرب فى الإسلام كما يلى:

١ – مبدأ التخطيط الاقتصادى :

وهو يحقق أفضل النتائج ، لأنه من أفضل الوسائل العملية للربط بين الاستراتيجية والاقتصاد بحيث يمكن استخدام الموارد الإنتاجية للأمة بسرعة وفاعلية وقت الحرب ، فإن مقتضى التكليف بالجهاد بالمال ، أن يكون المال مال الأمة وهى تحارب لدفع العدوان ، ومن ثم فإن التخطيط الاقتصادى يكفل توجيه المال نحو الأهداف المنشودة لصالح الدفاع عن الأمة وأمنها ، بعيدًا عن أشكال الاحتكار أو الصراع على الأرباح أو غيرها مما يعيق اندفاع عجلة التنظيم الاقتصادى.

٢ – التعبئة الاقتصادية فريضة وتكليف :

إن التكليف بالجهاد ، هو تكليف بالجهاد بالأموال والأنفس ، وعلى هذا الأساس فإن المؤمنين يستجيبون لنفير الجهاد «بأموالهم وأنفسهم» ، ولا يستأذنون فيما هو فريضة وتكليف كما يفهم من قوله الله تعالى :

﴿لاَيَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنونَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ أن يُجاهِدُوا بأموالهمْ وأنفُسِهِمْ واللَّهِ عليمٌ بالمتَّقِينَ ، إنما يَسْتأذِنُكَ الَّذينَ لاَ يُؤْمِنونَ باللَّهِ واليومِ الآخر وارْتَابَتْ قلوبُهُمْ فَهُمْ فى رَيْبِهِمْ يترَدَّدُونَ﴾

[التوبة ٤٤ : ٤٥]

وبهذا المفهوم أيضًا فإن تكاليف المعركة لا تحتمل أن تأخذ صفة الهبات أو التبرعات أو التراحم بل هى «تكافل عام» مفروض على أبناء الأمة الإسلامية جميعًا .

٣ – التكامل الاقتصادى للأمة الإسلامية :

ولابد أن يقوم النظام الاقتصادى للأمة الإسلامية على أساس التكامل ، لأن التكامل يحقق لها الاكتفاء الذاتى ، وهو مطلب حيوى لبناء القوة وخاصة فى ظروف الحرب ، لأنه لا يضع الأمة الإسلامية تحت رحمة الاحتكارات الدولية أو تقلبات السياسة والمصالح العالمية ، ولأنه هو الضمان الأكيد لفاعلية القوة واستمرارها وتطورها .

٤ – العمل ومضاعفة الإنتاج :

من العناصر الرئيسية للبنيان الاقتصادى العمل والإنتاج ، لكن أهمية هذين العنصرين تزيد وتتضاعف فى أوقات الشدة والحروب ، حيث تصبح مضاعفة الإنتاج من الضرورات الحيوية التى تفرضها المعركة .

ومن الطبيعى أن متطلبات القوات المسلحة من المؤن والذخائر والأسلحة

والوقود وغيرها تزيد وقت الحرب ، ثم إنها لا تحتمل التأجيل أو التعرض للأزمات أو الاختناقات ، الأمر الذى يستدعى تخزين كميات كبيرة من مختلف السلع والمواد اللازمة للقوات المسلحة أو الشعب عامة ، وذلك لمواجهة الأزمات التى تحدث عادة فى الحرب نتيجة لما تتعرض له أدوات الإنتاج كالمصانع والمنشئات الاقتصادية والمستودعات ووسائل النقل والمواصلات من الإصابة والتدمير .

ثم إنه فى وقت الحرب وبمقتضى إعلان النفير العام (التعبئة العامة) فإن كثيرًا من العاملين فى المصانع والمزارع وغيرها من مصادر الإنتاج يطلبون للقتال ، فيصبح من الضرورى أن تظل هذه المصادر محتفظة بطاقاتها الإنتاجية كما كانت عليه قبل النفير ، ويتحقق لها ذلك بالتدريب الجيد للعمال الجدد لكى يسدوا الفراغ ، وبرفع كفاءة جميع العاملين ليتقنوا العمل ويضاعفوا الإنتاج إلى غير ذلك من التدابير .

ومن أجل تعبئة هذه القوى والقدرات يوجه الإسلام إلى الإخلاص فى العمل وإتقانه كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

[الكهف - ٧]

وفى قوله جل شأنه : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

[التوبة - ١٠٥]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحسنَ عَمَلاً﴾

[الكهف - ٣٠]

وقد قال الرسول ﷺ :

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» (رواه أبو يعلى)

وأشاد ﷺ برجل رآه يضرب اللبن فى بناء المسجد النبوى بأحسن مما كان يضربه أخوه فقال له : «الزم هذا فإنى أراك تحسنه ورحم الله امرأ أحسن من صنعته» .

وقال ﷺ لمعاذ وقد وجد فى يده خشونة من العمل : «يد لن تمسها النار» وكررها .

كذلك يوجه الإسلام إلى التخطيط العلمى الذى هو أساس إتقان العمل وزيادة الإنتاج والاستعداد لمواجهة الأزمات ، وهو ما يفهم من قول الله تعالى : ﴿قال تَزْرَعُون سَبْعَ سِنِين دَأَبًا فما حَصدتُّم فَذَرُوهُ فى سُنبلِهِ إِلاَّ قليلاً مما تَأْكلونَ ، ثم يَأْتى من بعدِ ذلكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ ما قدمتُمْ لَهُنَّ إلا قليلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ، ثم يأتى من بعد ذلك عَامٌ فيه يُغَاثُ النَّاسُ ، وفيه يَعْصِرونَ﴾

[يوسف : ٤٧ - ٤٩]

وقوله جل شأنه : ﴿ولَمَّا بلغَ أَشُدَّهُ واستَوى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلمًا وكذلك نَجْزِى المحسِنِينَ﴾

[القصص : ١٤]

٥ – ضبط الاستهلاك ومحاربة الإسراف :

وذلك من الأمور التى يوجه إليها الإسلام لكى يتوفر للأمة فائض من الإنتاج يمكنها من مواجهة الأزمات ويجنبها آثار الحصار الاقتصادى أو الاحتكارات العالمية وقت الحرب . يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ المبذِّرينَ كَانُوا إِخْوانَ الشَّياطين وكان الشَّيطانُ لربه كَفُورًا﴾

[الإسراء : ٢٧]

﴿يابَنِى آدَمَ خُذُوا زِينتكُمْ عند كُلِّ مسجدٍ وكُلُوا واشربُوا ولا تسرفُوا إنه لا يُحبُّ المسْرِفينَ﴾

[الأعراف : ٣١]

﴿ولاَ تجعَلْ يدكَ مغْلولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تبسُطْها كُلَّ البسْطِ فتقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

[الإسراء : ٢٩]

وقال تبارك وتعالى فى صفات عباد الرحمن : ﴿والَّذِينَ إِذَا أَنفقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذَلِكَ قَوَامًا﴾

[الفرقان : ٦٧] .

ويقول الرسول ﷺ :

«ما عال من اقتصد» أى ما افتقر من لا يسرف فى الإنفاق ولا يقتر .

«الاقتصاد نصف المعيشة» (رواه البيهقي والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما)

– «إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا : فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال» (رواه مسلم عن أبي هريرة) .

– «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة» .

٦ – تحريم الاحتكار واستغلال ظروف الحرب :

ويحرم الإسلام احتكار الأقوات واستغلال ظروف الشدة والحرب لتحقيق الأرباح الطائلة برفع الأسعار والغش في المعاملات ، ويصف الله التجار الأمناء الذين يقومون بواجبهم نحو الله والناس ولا تشغلهم أعمالهم عن الله فيقول : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

[النور : ٣٧ – ٣٨]

ويقول الرسول ﷺ:

– «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»

- «الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون» (رواه ابن ماجة والحاكم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه)

- «من احتكر طعامًا أربعين يومًا فقد برئ من الله وبرئ الله منه» (رواه أحمد)

- وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ مر على صبرة[1] طعام فأدخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللاً . فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ . من غشنا فليس منا .

- وخرج الرسول ﷺ يومًا إلى السوق فرأى الناس يتساومون ويتبايعون ، فقال : «يا معشر التجار .. يا معشر التجار» فرفعوا أعناقهم واستجابوا وأنصتوا ، فقال : «إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارًا إلا من اتقى الله وبرّ وصدق».

---

(١) الصبرة بضم الصاد : الكومة من الطعام .